مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(عبرانيين ١: ١٠–١٤؛ ٢: ١–٣)

أنتَ يا ربُّ في البدءِ أسَّستَ الأرضَ والسمواتُ هي صُنعُ يدَيْك* وهي تزولُ وأنتَ تبقى وكلُّها تَبلى كالثوبِ* وتطويها كالرداءِ فتتغيَّرُ وأنتَ أنتَ وسنوكَ لن تَفنى* ولِمَنْ من الملائكةِ قالَ قطُّ اجلِسْ عن يميني حتى أجعلَ أعداءَك موطِئاً لقدَمَيْك* أليسوا جميعُهم أرواحاً خادِمةً تُرْسَلُ للخدمةِ من أجلِ الذينَ سيرِثونَ الخلاص* فلذلك يجبُ علينا أن نُصغيَ إلى ما سمِعناهُ إصغاءً أشدَّ لئلاَّ يسرَبَ من أذهاننا* فإنَّها إن كانتِ الكلِمةُ التي نُطِقَ بها على ألسِنةِ ملائكةٍ قد ثبَتت وكلُّ تعدٍّ ومعصيَةٍ نالَ جزاءً عدلاً* فكيفَ نُفلِتُ نحنُ إن أهمَلنا خلاصاً عظيماً كهذا قد نُطِقَ به على لسان الربِّ أولاً ثمَّ ثبَّتَهُ لنا الذينَ سمِعوه.

القديس غريغوريوس بالاماس وتعليمه

تقيم الكنيسة الأرثوذكسية في الأحد الثاني من الصوم تذكار أب ومعلّم كبير وقديس أوضح عقيدتها وتقليدها الحي إزاء تحديات لاهوتية واجهتها في القرن الرابع عشر، هو القديس غريغوريوس بالاماس أسقف مدينة تسالونيك.

وُلد القديس في القسطنطينية لعائلة نبيلة. منذ نعومة أظفاره ونتيجة تأثّره بشخصيّة والده الورع، إنجذب غريغوريوس إلى السيرة الرهبانية. ورغم وعود الإمبراطور الذي اعتنى شخصياً بتربيته من بعد وفاة والده الذي كان مستشاره الخاص، أقنع غريغوريوس والدته وإخوته الأربعة بأن يعتنقوا السيرة الرهبانية. حوالي العام ١٣١٨ مضى مع شقيقه إلى الجبل المقدس آثوس حيث تعلّما مبادئ الصلاة الهدوئية عبر ترداد اسم الرب يسوع وطلب رحمته في هدأة الليل. ولكن غزوات الأتراك على الجبل جعلته ينتقل مع شقيقه إلى مدينة تسالونيكي حيث سيم كاهناً العام ١٣٢٦. ثم انتقل إلى الجبل المحاذي لمدينة فيريا (Beroia) حيث نسك في اعتزال كامل حتى تمكّن من العودة إلى آثوس عام ١٣٣١. لكنّه وجد نفسه بعد ستة أعوام في خضّم مواجهة لاهوتية مع برلعام، راهب يوناني عالم من منطقة كالابريا جنوبي إيطاليا.

فقد اتصل به رهبان من تسالونيكي مع متوحدين من جبل آثوس ورجوه أن يدافع عنهم إزاء اتهامات برلعام. كان برلعام متمسّكاً بالقول إن الفلاسفة، لا الأنبياء، وبسبب قدراتهم الفكرية ومناهجهم المنطقية، يبلغون المعرفة الحقّة لله. أي أنه أبرز، فيما يختصّ بمعرفة الأسرار الإلهية، أولويّة العقل والمنطق والعلم على خبرة الصلاة والتنقية والتأمُّل.

حين انتقد القديس عقلانية برلعام المتطرّفة، ما كان من العالِم الكلابري إلاّ أن ردّ بنقدٍ لاذعٍ على منهاج الحياة الهدوئية للرهبان الآثوسيين. فكانت ردّة فعل القديس غريغوريوس أن دوّن مؤلّفه المثلّث الأجزاء «في الدفاع عن القديسين الهدوئيين» (حوالى ١٣٣٨)، وهو نتاج لاهوتي لامعٌ يشرح الأسس

العدد ٢٠١٢/١١
الأحد ١١ آذار
الأحد الثاني من الصوم
أحد القديس غريغوريوس بالاماس
تذكار أبينا الجليل في القديسين
صفرونيوس رئيس أساقفة
القسطنطينية
اللحن السادس
إنجيل السَحَر السادس

الإنجيل

(مرقس ٢: ١–١٢)

في ذلك الزمان دخل يسوعُ كَفَرْنَاحومَ وسُمِع أنَّه في بيتٍ* فللوقت اجتمعَ كثيرون حتى إنَّه لم يعُدْ موضعٌ ولا ما حولَ الباب يَسَعُ وكان يخاطبهم بالكلمة* فأتوا إليهِ بمخلَّعٍ يحملهُ أربعةٌ* وإذ لم يقدروا أن يقتربوا إليه لسبب الجمع كشفوا السقفَ حيث كان. وبعد ما نَقَبوهُ دلَّوا السريرَ الذي كان المخلَّعُ مضطجعاً عليهِ* فلمَّا رأى يسوعُ إيمانَهم قال للمخلَّعِ يا بُنيَّ مغفورةٌ لك خطاياك* وكان قومٌ مِنَ الكتبةِ جالسين هناك يفكّرون في قلوبِهِمْ ما بالُ هذا يتكلَّمُ هكذا بالتجديف. مَن يقدِر أنْ يغفِرَ الخطايا إلاَّ اللهُ وحدَهُ* فللوقت علمَ يسوعُ بروحِه أنَّهم يفكِّرون هكذا في أنفسِهم فقال لهم لماذا تفكِّرون بهذا في قلوبكم* ما الأيسرُ أن يُقالَ مغفورةٌ لك خطاياك أم أنْ يُقالَ قُمْ واحملْ سريرَك وامشِ* ولكن لكي تعلَموا أنَّ ابنَ البشر لهُ سلطانٌ على الأرض أن يغفِرَ الخطايا قال للمخلَّع* لك أقول قُمْ واحملْ سريرَك واذهب إلى بيتك* فقام للوقتِ وحملَ سريرَهُ وخرجَ

اللاهوتية للروحانية الأرثوذكسية ويدافع عنها. وقد صادق على أهميّة هذا المؤلّف رهبان جبل آثوس الذين التأموا في مجمع عُقِدَ ما بين ١٣٤٠ و١٣٤١، وأصدروا بياناً لاهوتياً يُعرف بالـ«طومس الآغيوريتي»، وهو نوع من التوكيد اللاهوتي على خبرة الأنبياء والرسل والقديسين في معرفة الله والاستنارة بنعمته والتي تتخطى كل معرفة عقلية أو فهم بشري فلسفي.

أما المجمع الكنسي المحلّي المنعقد في القسطنطينية عام ١٣٤١ فقد صادق بدوره على تعليم غريغوريوس وأدان برلعام. وقد تمكن خصوم الهدوئية العام ١٣٤٤ من قلب المعايير وإصدار حِرمٍ كنسي بحق غريغوريوس، ولكنّ مجمعين كنسيين إثنين انعقدا في القسطنطينية، الأول في ١٣٤٧ والثاني في ١٣٥١ أثبتا براءة غريغوريوس وأصالة تعليمه. هذان المجمعان المحلّيان اتخذا في الكنيسة الأرثوذكسية مكانةً ودلالة تضاهيان مكانة المجامع المسكونية، كونهما يوضحان التعليم الأرثوذكسي عن إمكانية معرفة الله والاستنارة بنوره الأزلي. وقد دبّج القديس غريغوريوس في هذه المرحلة عدداً كبيراً من المؤلفات والرسائل اللاهوتية التي تفصّل القول في كل ما يختص بخبرة الصلاة والاستنارة وتألّه الإنسان.

عام ١٣٤٧ تمّت رسامة القديس رئيس أساقفة على مدينة تسالونيكي، فلعب دوراً بارزاً في المصالحة وإحلال السلام فيها من بعد ثورة وحرب أهلية عنيفة. كما أنّه أُسِر على يد الأتراك حوالي السنة خلال رحلة إلى العاصمة القسطنطينية.

رقد بالرب العام ١٣٥٩ وأعلنت الكنيسة الأرثوذكسية قداسته عام ١٣٦٨ لما ظهر في حياته ورقاده من عجائب ولما تجلّى في تعليمه من استنارة وحكمة إلهيتين.

أما تعليم القديس غريغوريوس بالاماس فيرتكز إلى الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، اللذين يعلّماننا أن الأنبياء أبصروا الرب وسمعوا صوته من قبل تجسده، أما تلاميذ المسيح فقد أبصروا مجده وامتلأوا يوم العنصرة بسطيع ضيائه بعد أن تنقوا بعِشرة السيد واختبار آلامه وموته وقيامته المحيية. أما الإجابة عن التساؤل حول إمكانية أن يعرف الإنسانُ اللهَ الفائقَ الطبيعة والذي يسمو على كل إدراك وفهم، فقد أوضحها القديس عبر إبراز تعليم آباء الكنيسة القديسين عن التمييز ما بين الجوهر الإلهي (Divine Essence) الذي يسمو على كل معرفة، والقوى الإلهية (Divine Energies) التي بواسطتها يكشف الله ذاته للإنسان ويقدّس وجوده في الخليقة. أكّد العقيدة الأرثوذكسية بأن الجوهر الإلهي لا يمكن لمخلوق أن يدنو إليه أو يعرفه أما القوى الإلهية فيعرفها الإنسان ويتّحدُ بها فيتقدّس نفساً وجسداً ويتجلّى بنعمة الروح القدس.

كذلك أثبت القديس بالاماس أن الرسل الثلاثة بطرس ويعقوب ويوحنا شاهدوا اثناء تجلّي المسيح على جبل ثابور نور الله غير المخلوق. هذا النور الذي هو مجد الله الأزلي، الذي ظهر في العهد القديم لموسى والأنبياء، والذي يظهر من بعد تجسّد الرب لكل إنسان يسلك بثبات طريق التوبة والصلاة

أمامَ الجميعِ حتى دهِشَ كلُّهم ومجَّدوا اللهَ قائلين ما رأينا مثلَ هذا قطُّ.

تأمل

إن كان قارب لا يستطيع أن يبقى من دون قائد لأنه سيغرق، فهل يمكن أن يبقى العالم بأسره غير مضبوط منذ إنشائه؟ أُترك سفينةً في البحر ليوم فقط من دون قبطانٍ وبحّارة تغرق. أُترك كوخاً صغيراً من دون اهتمام ليومين فقط، وقد بنيته في الكرم لضرورات قطف العنب، وستراه مكوّماً على الأرض. فإذا كان القارب لا يستطيع أن يبحر من دون قائد، والكوخ لا يستطيع الصمود من دون اهتمام، فكيف كان عمل عظيم ومعقّد ومدهش كالكون سيُحفظ ويستمر من دون أي عناية لآلاف السنين؟ أنظر السماء اللامتناهية بالنجوم التي لا تُحصى، وانظر جمال الأرض مع كل حيواناتها ونباتاتها، واهتف من كل قلبك: «ما أعظم أعمالك يا رب كلّها بحكمةٍ صنعت» (مز ١٠٤: ٢٤).

نرى حطّاباً ينشر حطباً ولا نسأله الغاية من ذلك. نرى طبيباً يضمّد الجراح ويشرط اللحم ويؤلم مريضاً باتّباع نظام حمية منهك ولا نسأله لماذا يفعل كلّ هذه الأشياء.

والتنقية. هذا النور الإلهي والحياة والمجد الإلهيين يظهر للقديسين ويملأ كيانهم نوراً أبدياً، نوراً حقيقياً يقدّس الوجود ويبتلع كل ظلمة وقتام في حياة الإنسان وتاريخه.

صلاة النوم الكبرى

تكثر الصلوات وتتعدَّد وتتكثّف في فترة الصوم الأربعيني المقدس، إلاّ أنَّ الأكثر ممارسة من بين هذه الصلوات هي صلاة النوم الكبرى المعروفة شعبياً بصلاة «يا رب القوات».

صلاة النوم الكبرى هي عبارة عن صلاة شكرية كان مسيحيو القرون الأولى يمارسونها، وما لبثت أن تطوّرت ودخلت في دورة الصلوات اليومية.

يوصي القديس إكليمنضس بإقامة هذه الصلاة الشكرية قائلاً: «إنّه عملٌ مقدّس أن نشكر الله من أجل كلّ شيء قبل ذهابنا إلى النوم، كوننا تمتّعنا بجودته ومحبّته للبشر، فنذهب إلى النوم مع الله روحياً». إضافةً إلى ذلك، فإنّ المؤرّخ إفسافيوس القيصري يذكر في تفسيره للمزمور ١١٨ تسبحةً سابعة تُقام بين العشاء والنوم لم تكن قد دخلت حتى منتصف القرن الرابع في ترتيب الصلوات اليومية، ولا نجد بداية ذكر لهذه الصلاة في البرنامج الصلاتيّ اليوميّ إلاّ مع القديس باسيليوس الكبير ضمن القانون ٣٧ من قوانينه الرهبانية.

إذا قرأنا مؤلَّف رحلات الراهبة إيثيريا (أواخر القرن الرابع) الذي يُعتبر مرجعاً مهمًّا في الليتورجيا نستنتج أنّ هذه الخدمة كانت محصورة في بلاد البنطس وآسيا وأنطاكيا إذ لم تذكرها في وصفها نظام العائلات الرهبانية في مصر وما بين النهرين، لكن يمكننا القول إنّ هناك خدمة مشابهة لصلاة النوم في الصلوات الست قبل النوم الموجودة في نظام الرهبان المصريين والتي تتحدَّث عنها قوانين القديس باخوميوس أربع مرات.

يذكر القديس سمعان التسالونيكي أنّه كان هناك ترتيب واحد لصلاة النوم وهو صلاة النوم الكبرى المذكور في تيبيكون دير القديس سابا، إلاّ أنّه ظهر في القرن الثالث عشر اختصارٌ لهذا الترتيب سمّي «صلاة النوم الصغرى» أصبح يمارسه المؤمنون والرهبان يومياً. أمّا الترتيب الكبير فأصبح يقام في أيام الأسبوع من الصوم الأربعيني المقدس.

كما ذكرنا سابقاً، صلاة النوم الكبرى هي صلاة شكريّة على نهار مرَّ بسلام: «إذ قد عبرتُ النهارَ أشكرك يا رب... إذ قد عبرتُ النهار أمجّدك أيها السيّد... إذ قد عبرتُ النهار أسبّحك يا قدوس»، كما أنّها صلاة توبة كما تدلّ المزامير (٤ و٦ و٥٠ وغيرها) والأفاشين التي نتلوها (صلاة منسّى ملك اليهودية وصلاة القديس أفرام السرياني)، وهي صلاة طلبية نطلب فيها أن نجوز مسافة الليل بلا شرور ولا تجارب شيطانية (إفشين القديس باسيليوس الكبير): «...أهلنا أن نجوز مسافة الليل بلا عيب غير مجرّبين من المساوئ...».

يذكر السنكسار اللاتيني أنّ الإفشين الذي يختم الجزء الثاني من صلاة النوم الكبرى: «أيّها السيد الإله الآب الضابط الكلّ والربّ الإبن الوحيد...» يعود إلى القديس الشهيد مرداريوس الذي قضى في اضطهادات ديوكليتيانوس، إذ يقال

وأمام الحطّاب والطبيب وأمام كل الناس الآخرين، المائتين والجهلة، نُظهر ثقةً مطلقة ونقبل بصمت ومن دون بحث ولا احتجاج كلّ ما يفعلون، أمّا تجاه الله الخالد والكلّي الحكمة فلا نُظهر ثقةً ونريد فحص أعماله العجيبة ونجرؤ مراتٍ عديدة على اتهامه بأنه ظالم! ولا نبتّ بسهولة بإعطاء الأموال للفقراء أو الدفاعٍ عن المظلومين، بل ندقق بحرص – ودائماً بنيّة مشكّكة للأسَف – لأنّ الله يسمح بأن يكون الواحد غنياً، والثاني فقيراً والثالث معدماً. ألا يجدر بنا أن نطأطئ رؤوسنا وندين أنفسنا ونضع لِجاماً لألسنتنا ونضبط أذهاننا ونوجّه فضولنا إلى حياتنا وأعمالنا؟ لنفحص أعمالنا بانتباه ولننشغل بخطايانا، ولنكن متفحّصين ومنشغلين تماماً، ولنطلب جواباً عمّا قلناه وفعلناه بشكل سيء. إننا عوضاً من أن نفعل هذا، نضع الله في قفص الاتهام وندينه، مُضيفين بهذا خطيئة أخرى على خطايانا، ومهيّئين لدينونتنا الأبدية التي أرجو أن نتجنّبها بنعمة ربنا يسوع المسيح ومحبته للبشر.

القديس يوحنا الذهبي الفم

إنّها الصلاة التي ردّدها مع رفاقه المستشهدين معه قبل الإستشهاد.

أمّا الترنيمتان اللتان تميّزان صلاة النوم الكبرى (معنا هو الله ويا رب القوات) فمأخوذتان من سِفر إشعياء النبي. الأولى تمثّل رمزيّة الليل الممزوجة برجاء قدوم المسيّا الذي يقوّي ويعزّي المحزونين بسبب مصائبهم، أمّا الثانية (إش ٢٦: ١٣) فتُرتَّل مع آيات المزمور ١٥٠ وتدلّ على تسليم ذواتنا بالكليَّة إلى الرب وليس إلى أيّ معين آخر لأنّ الرب وحده هو ناصرنا في الأحزان.

هناك أيضاً الأفاشين التي تأتي في نهاية الصلاة. في الأول نطلب المعونة من والدة الإله في لحظات حياتنا الأخيرة: «... أما في وقت خروج نفسي الشقيّة فتداركيني من حولي...»، كوننا لا نعرف إذا كنّا سنستيقظ من رقاد النوم. وفي الآخر (واعطنا أيها السيد إذ نحن منطلقون إلى النوم...) نطلب من الرب أن يحفظنا أنقياء ومتيقظين: «وامنحنا يا الله عقلاً ساهراً، وفكراً طاهراً، وقلباً مستيقظاً ونوماً خفيفاً...» وأن نستيقظ بعد النوم لنمجده (نذكّر بأنّنا نتلو صلاة النهوض من النوم الشكرية كل صباح عند الإستيقاظ)، وفي نهايته نعبّر عن ثقتنا بشفاعة والدة الإله وعن إيماننا الثالوثي: «الآب رجائي والإبن ملجأي والروح القدس وقائي...».

إذا أردنا تفصيل شرح صلاة النوم الكبرى وأهميّتها في أيام الصوم من حيث التوبة والرجوع إلى الله فإنّنا لن نفيها حقّها بالكامل مهما كُتب، لذا كان لا بدّ من الإضاءة على بعض النواحي منها. تقبَّل الله صلواتِنا وصومَنا وجعلنا مستحقين للوصول إلى فرح قيامته المجيدة.

الخادم مدبّر النعمة

كان أحد الكهنة يزور ناسكاً حبيساً من سكان القفار ويقيم له القداس الإلهي. في أحد الأيام، قام أحد زوار الحبيس باتّهام الكاهن بعدّة تهم، فتأثر الناسك وشعر بالكراهية تجاه الكاهن الذي عندما جاء ليقيم القداس الإلهي لم يفتح الناسك له الباب. سمع الناسك حينئذٍ صوتاً قائلاً: «لقد اختلس مني الناسُ حقَّ الدينونة». ثم اختُطِف وشاهد، في رؤيا، إنساناً أبرص يقف فوق نبع ماء عذب ويملأ وعاءً ذهبيًّا بالماء النقي. أما الناسك، فعلى الرغم من عطشه، كان يأنف من الشرب بما أنّ الشخص الذي يملأ الماء هو أبرص. حينئذٍ، سمع مرّة ثانية صوتاً يقول له: «لماذا لا تشرب؟ ألا ترى أيَّ وعاءٍ يستعمل الأبرص؟ ثم إنّه يملأه ويسكبه بعد ذلك». عندما عاد الناسك إلى نفسه، فَهِم معنى الرؤيا، ثم قام باستدعاء الكاهن راجياً إيّاه أن يقيم القداس الإلهيَّ على حسب عادته.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb